﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقفيةُ ذِكْرِ هدايةِ اللهِ بإرسالِ رُسُلِهِ لهدايتِهِ إيَّاهم في أصل فِطْرَتِهم وخَلْقِهم

لمَّا ذكر ﷻ هدايتَهُ للبشرِ بإرسال الرُّسل، وإنزال الكتبِ في قصَّة بني إسرائيل؛ قَفَّى على ذلك بذكرِ هدايتِهِ إيَّاهم بما أودعَ في فطرتهم، وركَّب في عُقولهِم من الاستعداد للإيمان به، وتوحيدِهِ وشكره، منذ النَّشأةِ الأولى، فهو سبحانه بعد أن أظهرَ تمادي هؤلاء اليهود في الغيِّ، بعد أخذِ الميثاق الخاصِّ الَّذي دلَّ عليه قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63] وذكر هُنا أنَّهم نقضوا أيضًا الميثاق العامَّ الَّذي أخذه على بني آدم جميعًا - وهم في صُلب آدمَ[1] عليه السلام. ووجهٌ آخرُ أنَّه لمَّا شرح قصَّة مُوسى عليه السلام مع توابعها، على أقصى الوجوهِ؛ ذكرَ في هذه الآيةِ ما يجري مجرى تقريرِ الحُجَّةِ على جميع المكلَّفين[2]، فبيَّنَ اللهُ هُنا هداية بني آدمَ، بنصب الأدلَّةِ في الكائنات، بعد أن بيَّنها عن طريقِ الرُّسلِ والكتبِ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظُهُورِهِمْ﴾: أَصْلابُهم؛ والظَّهرُ الجارحةُ المعروفة، وأصل (ظهر) يَدُلُّ على قوَّةٍ وبُروز[4]، والمعنى هُنا: أخرجَ من أصلابِهم

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 102/9، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 190/10.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 397/15.
(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 235.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظهر).

ذُرِّيَّتَهم للعهد والميثاق[1]، ونؤكِّدُ " أنَّ للّه تعالى ميثاقين مع بني آدم، أحدهما: يهتدي إليه العقلُ من نصب الأدلَّةِ الباعثةِ على الاعترافِ الحالي، وثانيهما: المقاليُّ الَّذي لا يهتدي إليه العقلُ، بل يتوقَّف على أخبارِ الأنبياء، فأراد النَّبيُّ أن يخبرَ الأمَّةَ عمَّا لا تهتدي إليه عقولهُم، من ميثاقٍ آخرَ أزليٍّ، فقال ما قال"[2].

2) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُّرِّيَّة: الأولادُ وأولادهم، والذُّرِّيَّة: أصلُها الصِّغارُ من الأولادِ وإن كانَ قد يقعُ على الصِّغار والكبار[3]، و(ذُرِيَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة خَلْقُ اللّه، يُقال: ذَرَأ اللّهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم، فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها[4].

3) ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾: من (شهد)، والشَّهادةُ: خبرٌ قاطعٌ، تقولُ منه: شهدَ الرَّجل على كذا، وربَّما قالوا: شهدَ الرَّجلُ، بسكونِ الهاءِ للتَّخفيفِ، عن الأخفشِ، وقولهم: اشهدْ بكذا، أي: احلف[5]، جعلَهم يشهدونَ، يُقَالُ: أَشْهَدَه على الشَّيء، يُشْهِدُه إشهادًا فَشَهِدَ[6]، أي: صارَ شاهدًا، وأصل (شهد)، يَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ[7]، والمعنى هُنا: أَوْجَدَهُم شاهدين بذَلِكَ، قائلينَ له حالًا ومقالًا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـانُ إشـهـادِ اللـهِ لبني آدمَ بالـرُّبـوبيَّةِ لَـهُ؛ لِئَلَّا يُنكروا هذا يومَ القيامةِ

واذكر -أيُّها الرَّسول- إذ أخرجَ ربُّك أولادَ آدمَ مِن أصلابِ

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 548/3، وابن سعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 308.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 110.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 178، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 7/3.
(4) الرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والسّجستاني، غريب القرآن: 230/1، وابن فارس، مقاييس اللغة: 352/2، وابن الأثير، النِّهاية: 157/2، وابن الهائم، التبيان، ص: 92.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: 494/2.
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 3571/6.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 506/3.

آبائِهم، وقرَّرهم بإثباتِ رُبوبيَّتِه، بما رَكَزَهُ في فِطَرِهِمْ من الإقرارِ، بأنَّهُ خالقُهم وربُّهم قائلًا لهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا جميعًا: بلى أنت ربُّنا؛ وإنَّما فعلنا هذا حتَّى لا تُنكروا يوم القيامةِ حُجَّةَ اللهِ عليكم، وتقولوا: إنَّه لا علمَ لكم بذلكَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ، وموقع مفتتح الآية بما قبلها:

بيانُ تمادي اليهودِ ومَن شابَهَهُم في نقضِ الميثاقِ الخاصِّ والعامِّ

في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أي: واذكر - أيُّها الرَّسولُ - للنَّاسِ كافَّةً ما أخذهُ اللهُ من ميثاقِ الفطرةِ على البشر عامَّةً[2]، وهو معطوفٌ على ما قبلُ، مسوقٌ لإلزام اليهودِ بمقتضى الميثاقِ العامِّ، فإنَّ منهم مَن أشركَ، فقالَ: عُزيزٌ ابن اللهِ -عزَّ اسمُه- بعد إلزامهم بالميثاقِ المخصوص بهم، والاحتجاجِ عليهم بالحُجَجِ السَّمعيَّة والعقليَّة ومنعهم عن التَّقليدِ، فالحكمةُ في تخصيصِ بني إسرائيلَ بهذه القصَّة الزِّيادةُ في إقامة الحُجَّة عليهم، حيثُ أعلمَهم اللهُ، بأنَّه أعلمَ نبيَّهُ بمبدأ العالم، فضلًا عن وقائعِه، فيكونُ هذا من قبيلِ عطفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ. وبعضُهم جوَّز أن يكونَ تذييلًا؛ تعميمًا بعد التَّخصيص؛ حيثُ ذكرَ شؤونَ البشر العامَّةِ المتعلَّقةِ بهداية اللهِ لهم، بما أودعَ في فطرتهم، وركَّبَ في عقولهم من الاستعدادِ للإيمان به، وتوحيده وشُكره، في إثر بيان هدايتِه لهم بإرسال الرُّسل وإنزالِ الكتبِ في قصَّة بني إسرائيل، إظهارًا لتمادي هؤلاء اليهودِ في الغيِّ بعد أخذِ الميثاقِ الخاصِّ المدلولِ عليه بقوله سبحانه: ﴿*وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾[3]؛ فالمناسبةُ بين هذا وما قبلَهُ ظاهرةٌ، ولذلك عطَفَ عليه عطْفَ جملةٍ على جملة، أو سياقٍ على سياق[4].

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 234، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 103/9.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 206/10.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 386/9.

سِرُّ الانتقالِ من مُخاطبةِ بني إسرائيلَ إلى غيرِهم من مُشركي العربِ:

التَّذكيرُ بمقصودِ السُّورةِ الكريمةِ في مُحاجَّةِ المشركين والرَّدِّ عليهم

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾: هذا انتقالٌ بالكلامِ إلى محاجَّةِ المشركين من العربِ، وهو المقصودُ من السُّورةِ ابتداءً ونهايةً، فكان هذا الانتقالُ بمنزلة رَدِّ العَجُزِ على الصَّدر، حيثُ جاءَ هذا الانتقال بمناسبةِ ذِكرِ العهدِ الَّذي أخذَ اللهُ على بني إسرائيلَ في وصيَّةِ موسى، وهو ميثاقُ الكتاب، وفي يومِ رفعِ الطُّورِ، وهو عهدٌ حصلَ بالخطابِ التَّكوينيِّ، أي: بجعل معناهُ في جِبِلَّةِ كلِّ نَسَمَةٍ وفِطْرتِها[1].

سرُّ المجازِ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾:

مناسبةُ ما تضمَّنتْهُ الآيةُ مِن الميثاقِ، والإيذانُ بالاعتناءِ بشأنِ المأخوذِ

في قَولِه: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾: الأخْذُ انتزاعُ الشَّيءِ وتناولُهُ من مقرِّهِ، وهو هنا مجازٌ في الإخراجِ بجامعِ الانتزاع، وفي إيثار الأخذِ على الإخراجِ مناسبةٌ لما تضمَّنتْه الآيةُ من الميثاقِ، فإنَّ الذي يناسبُهُ هو الأخذُ دونَ الإخراجِ[2]، وفيه أيضًا إيذانٌ بالاعتناءِ بِشَأنِ المأخوذِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في مقامِ أخْذِ الميثاقِ:

بيانُ آثارِ الرُّبوبيَّةِ في الاجتباءِ، والاصطفاءِ بهذا الأخْذِ، وما يتبعُهُ

قولُهُ تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، أي: المحسنُ إليكَ بالتَّمهيدِ لرسالتك[3]، والتَّعبيرُ بالرَّبِّ في هذا المقامِ، لما يَظْهر في الأخذِ باعتبار ما يتبعُهُ من آثارِ الرُّبوبيَّة من الاجتباءِ والاصطفاء[4]، حيثُ أمرهُ أن يذكرَ لهم أنَّه ركَّبَ لهم في عمومِ هذا النَّوعِ الآدميِّ من العقولِ، ونصبَ من الأدلَّة السّارية على مقتضى التّكوين، وجريان الأقدار، ما لو عُذِّب تاركُه، والمتهاونُ به، لكانَ تعذيبُه جاريًا على المناهج، مُلائمًا للعقول، ولكنَّهُ سبحانه لسبقِ رحمتِهِ وغلبةِ رأفته، لم يؤاخِذْ بذلك، حتَّى ضمَّ إليه الرُّسل، وأنزل معهم الكُتب، وأكثرَ فيها من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 166/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 94/5.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 151/8.
(4) إرشاد العقل السّليم: 289/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 93/5.

المواثيقِ، وزاد في الكشفِ والبيان، وإلى كلِّ ذلك جاءتِ الإشارةُ باسم الرَّبِّ[1].

نكتةُ إضافةِ كلمةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الخطابِ ﴿رَبُّكَ﴾:

الرَّسولُ الأكرمُ ﷺ تجلّتْ فيه معاني العبوديَّةِ لكمال الرُّبوبيَّةِ

إضافةُ كلمةِ الرَّبِّ إلى ضميره ﷺ، للتَّشريفِ والتَّكرمةِ والتَّنويهِ بمحلِّهِ وفضيلته[2]، فهو المربِّي له بفضلهِ وإنعامهِ، وهو الَّذي اجتباهُ واصطفاهُ، مبلِّغًا ومذكِّرًا بما أوحاهُ، فعبَّر عن ذي الجلالةِ بـ(ربّك)، بالإشارةِ إلى معنى الرُّبوبيَّةِ الَّتي تملأ نفسَ النَّبيِّ ﷺ، وقد أدركها قبل النُّبوَّةِ بالفطرة الإنسانيَّةِ الكاملةِ، فنفرَ من عبادة الأوثان، وعبدَ اللّهَ (تعالى) وحده، وقال: إنَّه الدَّيَّانُ وحدَهُ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بعبارةِ ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للذّكور:

بيانٌ لنوعٍ من أخذَ من ذرِّيّتهم عهدَهُ وميثاقَهُ

لَمَّا كانَ السِّياق في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لأخذ المواثيق، والأخذِ بقوَّةٍ؛ ذكرَ أخْذَ الذُّرِّيَّةِ من أقوى نوعَي الآدميِّ، وهم الذُّكورُ، فقالَ: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[4]؛ إذِ الأخذُ والاستخراجُ يكون من مُستقرِّ أصلابِ الذُّكور، للذُّرِّيَّةِ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ وفي هذا بيانٌ لنوعِ مَن أُخِذَ من ذرِّيَّتهم، وهم بنو آدم[5]؛ و﴿مِنۢ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: ابتداءً من بني آدم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالبدلِ ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾:

تقريرٌ بالبيانِ بعد الإبهامِ وتفصيلٌ بعد الإجمالِ

وقولُه تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بدلٌ من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، بدلَ البَعضِ بتكريرِ الجارِّ، وفيه مزيدُ تقريرٍ؛ لابتنائه على البيانِ بعد الإبهامِ، والتَّفصيلِ بعد الإجمالِ[6]، كما أعيدَ حرفُ الجرِّ مع البدل للتَّأكيد، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99][7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8.
(2) إرشاد العقل السّليم: 289/3، والقنوجيّ، فتح البيان: 611/2.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3003/6.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 152/8.
(5) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3003/6.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 289/3.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

سرُّ تأخيرِ المفعولِ بهِ:

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعول ﴿أَخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وقد أُخِّر عن المفعولِ بواسطةِ الجارِّ، لاشتمالهِ على ضميرٍ راجعٍ إليه، فيلزمُ بالتَّقديم رجوعُ الضَّمير إلى متأخِّرٍ لفظًا ورُتبةً، وهو لا يجوز إلَّا في مواضعَ ليس هذا منها، وأُخِّر أيضًا لمراعاةِ أصالتهِ ومنشئيَّته، ولقصد التَّشويق إلى المؤخَّر[1].

مُـراعـاةُ كـونِ الـذُّرِّيَّـةِ من بني آدمَ، مع التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ

دلالةُ لفظِ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في هذا السِّياق:

فعل ﴿أَخَذَ﴾ يتعلَّقُ بهِ ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، وهو معدًّى إلى ذرِّيَّاتهم، فتعيَّن أن يكون المعنى: أخذَ ربُّك كلَّ فردٍ من أفرادِ الذُّرِّيَّة، من كلِّ فردٍ من أفرادِ بني آدم، فيحصلُ من ذلك أنَّ كُلَّ فردٍ من أفرادِ بني آدمَ، أقرَّ على نفسهِ بالمربوبيَّةِ للَّهِ تعالى[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه أكَّد عليهم المواثيقَ، وشدَّدها لهم، وأمرَهُم بالقوَّةِ في أمرِها، وأعطاهم من القوَّةِ في التَّركيبِ والمزاج ما يكونون به مُطيعينَ لذلك، فهو تكليفٌ بما في الوسعِ[3].

بيانُ أنَّ العهدَ مأخوذٌ على كلِّ فردٍ من الذُّرِّيَّةِ أخذًا قويًّا مُؤكَّدًا

تنوُّعُ القراءةِ القرآنيَّةِ وأثرهُ في المعنى:

قرأَ أبو عمرٍو وابن عامر ونافع: ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ بالجمع، وقرأ باقي السَّبعةِ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد، وهي تقعُ على الواحدِ والجمعِ[4]، والذُّرِّيَّات جمع ذرِّيَّةٍ، والذُّرِّيَّة: اسمُ جمعٍ لما يتولَّد من الإنسانِ، وجمعه هُنا للتَّنصيصِ على العمومِ، فجُمِعَ لتُخْلَصَ الكلمةُ إلى معناها المقصودِ إليه لا يشركها فيه شيءٌ، وهو الجمعُ؛ لأنَّ ظهورَ

الـجـمـعُ للتَّنصيصِ على العمومِ، واسمُ الجمعِ لدخولِ أبناءِ آدمَ من صلبِهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 94/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 152/8.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 273/2.

بني آدمَ استخرجَ منها ذُرِّيَّاتٍ كثيرةً مُتناسبةً، أعقابًا بعد أعقابٍ، لا يعلم عددَهم إلَّا اللّٰهُ، فجمعَ لهذا المعنى[1]، كما أنَّ أَخْذَ العهد على الذُّرِّيَّة المُخْرجين من ظهورِ بني آدم، يقتضي أخذَ العهدِ على الذُّرِّيَّة الَّذين في ظهرِ آدم، بدلالةِ الفحوى، وإلَّا لكان أبناء آدمَ الأَدْنَوْنَ ليسوا مأخوذًا عليهم العهدُ، مع أنَّهم أولى بأخذ العهدِ عليهم، في ظهر آدم[2]، فلم يذكرْ ظهرَ آدمَ، وإنَّما أُخرجوا جميعًا من ظهرِهِ لأنَّ اللّٰهَ تعالى أخرج ذريَّة آدمَ بعضَهم من ظهورِ بعضٍ، على نحو ما يتوالدُهُ الأبناءُ من الآباء، فاستُغني عن ذكرِ آدم، لما عُلِمَ أنَّهم كُلُّهم بنوه، وأُخْرجوا من ظهره[3]، وكذا من آدمَ، فالأخذُ منه لازمٌ للأخذِ منهم؛ لأنَّ الأخذَ منهم بعدَ الأخذِ منهُ، ففي الآيةِ الاكتفاءُ باللَّازمِ عن الملزوم[4].

معنى الإشهادِ، وبلاغةُ التَّعبيرِ بهِ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾:

تقريرُهم بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ بما نصَّبهُ لهم من دلائِلها

قولهُ تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: قرَّرهم بإثباتِ ربوبيَّتِهِ، بما أودعَهُ في فطرهم من الإقرارِ بأنَّهُ ربُّهم وخالقُهم ومليكُهم[5]، فأوضحَ لهم من البراهينِ من الإنعامِ بالعقولِ، مع خلقِ السَّموات والأرضِ وما فيهما على هذا المُنوالِ الشَّاهد له بالوحدانيَّةِ، وتمامِ العلم والقُدرةِ، ومن إرسالِ الرُّسل المؤيَّدين بالمعجزاتِ، ما كانوا كالشُّهودِ بأنَّه لا ربَّ غيره[6]، والشَّهادةُ على النَّفسِ لونٌ من الإقرارِ، والإقرارُ سيِّدُ الأدلَّةِ، "فنصبَ لهم دلائلَ ربوبيَّتِهِ، وركَّبَ في عقولهم ما يدعوهُم إلى الإقرارِ بها[7]، وقيلَ: إنَّ المعنى هنا على سبيل

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 317/7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.
(3) الواحديّ، الوسيط في التَّفسير: 424/2.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 611/2.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 308، والصّاويّ، حاشيّة الصَّاويّ على الجلالين: 570/1.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 152/8.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4441/7.

التَّمثيل[1]، إذ الإشهادُ على الأنفسِ يُطلقُ على ما يُساوي الإقرارَ، أو الحملَ عليهِ، وهو هُنا الحملُ على الإقرارِ، واستعيرَ لحالةٍ مُغيَّبةٍ تتضمَّنُ هذا الإقرارَ، يعلمُها اللّهُ، لاستقرارِ معنى هذا الاعترافِ في فطرتهم[2]؛ فالمقصودُ من الجملةِ الاحتجاجُ على المشركينَ بمعرفتِهم ربوبيَّتَهُ تعالى معرفةً فطريَّةً لازمةً لهم لزومَ الإقرارِ منهم والشَّهادة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: 30]، والفطرةُ هي معرفةُ ربوبيَّتِهِ سبحانه[3].

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

الضَّميرُ في ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ عائدٌ على الذُّرِّيَّة، باعتبارِ معناهُ؛ لأنَّهُ اسمٌ يدلُّ على جمع[4]، وفي قراءةِ ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ يكون عائدًا على لفظِهِ؛ وطريقةُ العربيَّةِ في الحملِ على اللَّفظ والحمل على المعنى جاريةٌ؛ فالإفرادُ لاتِّحاد الصِّفةِ، والنَّسلُ لمراعاةِ التَّناسل، وفي هذا إيجازٌ، وإذا أُشْبِعَ المعنى فالإيجازُ هو البلاغة.

عـودُ الضَّـميرِ عـلى الـذُّرِّيَّـةِ، باعتبارِ معناهُ، وعـلى الـذُّرِّيَّاتِ باعتبارِ لفظِهِ

دلالةُ الحذفِ في ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾:

جملةُ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾، مقولٌ لقولٍ محذوفٍ، أي: قائلًا هذا، فهو على إرادةِ القَوْلِ يُخاطِبُ فيه اللّهُ ﷻ جميعَ خلقِهِ، ويجيبهُ

بـيـانُ كـمـالِ قدرةِ اللهِ تعالى عـلى مـخـاطـبـةِ مخلوقاتِهِ، بما يـشـاءُ، وكـيـفَ يشاءُ

(1) وبهذا المعنى قال كثير من المفسِّرين في تنزيل تمكينهم من العلم بها وتمكُّنهم منه منزلة الإشهادِ والاعتراف بطريق التَّخييل والاستعارة التَّمثيليَّة، وتصوير المعنى، فقالوا: إنَّهُ شبَّه الهيئة المنتزعة من هذه الأمور العديدة، بالهيئة المنتزعة من الإشهاد والإقرار، لكنَّ الأمور المشبَّهة بها مخيَّلةٌ موهومةٌ غير محقَّقةٍ، فلا قول ولا إقرار حقيقة. ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 218/5، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 543/8.

والصَّواب إثباتُ هذه المعاني على وجه الحقيقة وإمرارها كما جاءت، وقد فصَّل الشَّيخ صدِّيق حسن خان القِنَّوجيُّ القول في هذه المسألة؛ وأنَّه بمعناه؛ إذ إخراج الذُّرِّيَّة من الظُّهور قبل الخلق والظُّهور، وأخذ الميثاق والعهود، ممَّا يقتضي التَّرغيب والتَّرهيب، وهذا على سبيل التَّحقيق دون التَّخييل والتَّقدير. ينظر، القنّوجيّ، فتح البيان: 611/2.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 431/5.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

جميعُ خلقهِ، وقد ذهبَ كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ القولَ هُنا قولُ إرادةٍ وتكوينٍ، لا قولَ وحيٍ وتلقين: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فقالوا كذلك بلغةِ الاستعدادِ، ولسانِ الحال، لا بلسانِ المقالِ: (بلى أنت ربُّنا، والمستحقُّ وحدَهُ لعبادتنا)؛ فهو من قبيلِ قولهِ تعالى بعد ذكرِ خَلْقِ السَّماءِ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: 11]، وهو مَبنيٌّ على القولِ الأوَّلِ في الإشهادِ ومعناه[1]، ويكفي أنَّ ربَّنا الخالقَ القادرَ، قد أبلغنا أنَّه قد خاطبَ الذَّرَّات قائلًا: (ألست بربِّكم؟)، وقد يقول قائلٌ: أكانَ لهذهِ الذُّرِّيَّةِ القدرةُ على النُّطقِ، وهي ذرِّيَّةٌ تنتظرُ التَّكوين الآخرَ في أرحام الأمَّهات؟ فجوابهُ أنَّ مخاطبةَ ربِّنا لهم ليس بالأمرِ الصَّعب؛ فربُّنا يقدرُ أن يُعدِّدَ وسائل الأداء لمخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 10] فهو قادرٌ على أن يخاطبَ أيًّا من مخلوقاته؛ وهو القائلُ سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: 79]... فإذا قرأنا: أنَّ الحقَّ قال لذرِّيَّةِ آدمَ: (ألستُ بربِّكم؟) فهذا يعني: أنَّهُ قالها لهم باللُّغة الَّتي يفهمونها، ولقد تكلَّمتِ النَّملةُ، وفَهِمَ سليمانُ كلامَها، ولو لم يُعلِّم اللهُ سليمانَ كيف يفهَمُ كلامَها، لما عرفنا أنَّها تكلَّمت: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النَّمل: 18][2].

إيثارُ الاستفهامِ التَّقريريِّ على التَّقريرِ المباشرِ:

إفـادةُ التَّقريرِ بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ، والمُبالغةِ في إثباتِها

في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الهمزةُ للاستفهام، والاستفهامُ هنا للتَّقريرِ، والمعنى: أنَّا ربُّكم الحقُّ، وجيء بذلك النَّحوِ من القولِ لتأكيدِ الإيجاب، كأنَّه سألَهم، وأجابوا بالإثبات، أي: بإثباتِ الرُّبوبيَّة، وقد أجابوا على هذا السُّؤالِ، مُثبتينَ موجبَ نفي النَّفي، فقالوا: بلى[3]،

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 386/9.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4441/7.
(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3003/6.

فالهمزةُ: همزةُ إنكارٍ، دخلت على المنفيِّ، فرجعَ إلى معنى التَّقريرِ والمُبالغةِ في الإثبات[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في تعيينِ المقرَّرِ بهِ ﴿بِرَبِّكُمۡۖ﴾:

التَّذكيرُ بعوائدِ الإحسانِ، لتكونَ سببًا في الإقرارِ

قولُهُ: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾، أي: المحسنُ إليكم بالخلقِ، والتَّربيةِ بالرِّزقِ[2]، ومالكُ أمركم، ومُربِّيكم على الإطلاقِ من غير أَن يكونَ لأَحدٍ مَدخلٌ في شأنٍ من شؤونكم[3]؛ فذكَّرهم بعوائدِ إحسانِهِ، وتربيتِهم بفضلِهِ وامتنانِهِ، ليكونَ سببًا في إقرارِهم بتوحيدِهِ، وتعظيمِ شأنِهِ.

دلالةُ جوابِ التَّقريرِ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، وبلاغتُهُ بين الحالِ والمقالِ:

مفادُ القولِ على وَفْقِ السُّؤالِ الَّذي استفسرَ عن تربيتِهم، لا عن إلههم

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾، أي: على أنفسِنا بأنَّك ربُّنا، واختلفوا في الإجابةِ هذه كيف كانت؟ هل كانوا أحياءً؟ فأجابوا بلسانِ المقال، أو أجابوهُ بلسانِ الحال، وأنَّ المُراد إقرارُ نفوسهم، لا إقرارُ ألسنتِهم، فإنَّهم انقسموا في إقرارِ الألسنةِ؟[4]، والظَّاهرُ الأوَّلُ، ونَكِلُ كيفيَّتها إلى اللّه سبحانه، وكان هذا القولُ على وَفْقِ السُّؤالِ؛ لأنَّه تعالى سألهم عن تربيتِهم، ولم يسألْهُم عن إلههم، فقالوا: بلى، فلمَّا انتهوا إلى زمانِ التَّكليفِ، وظَهَرَ ما قضى اللّهُ في سابقِ علمِهِ، لكلِّ أحدٍ؛ منهم مَن وافقَ ومنهم مَن خالَف.

(1) أبو حيَّان الغرناطي، النَّهر المادّ: 885/1، وبهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 127/4.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 152/8.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.

(4) وهذا منسحب على القول بأنَّ الكلام جارٍ مجرى التَّمثيل أيضًا، وقد ذكر الشَّيخ محمَّد دروزة أقوال من قال بذلك من المفسِّرين، وأطال النَّفس في مناقشة أقوالهم، ثمَّ خلص إلى قوله: وطريقة السَّلف الَّتي أخذ بها الطَّبري في الأسلوب الَّذي أخذ اللّه به العهد من بني آدم أسلم؛ ففي القرآن عبارات كثيرة، مثل هذه لا يمكن معرفة مراد اللّهِ تعالى بها معرفةً ذاتيَّة ولا يكون هناك حديث نبويٌّ ثابتٌ في تفسيرها، ففي مثل هذه الحالة تكون تلك الطَّريقة أسلم، ويكتفى بشرح مدلول الآيات الَّتي فيها العبارة شرحًا عامًّا، على أنَّ هذا لا يمنعنا من القول: إنَّنا نرى وجاهةً وسدادًا في الأقوال والتأويلات الأخرى. ينظر: محمّد عزّة دروزة، التّفسير الحديث: 529/2.

سرُّ اصطفاءِ الجوابِ ﴿بَلَىٰ﴾:

(بـــلى) تـفـيـدُ إبـطـالَ النَّـفي وتـقـريـرَ المنفي، بـخـلافِ (نـعـم) الَّـتـي تـحـتـمـلُ الأمرين

﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ لكلامٍ فيه معنى النَّفي، فيقتضي إبطالَ النَّفي وتقريرَ المنفيِّ، ولذلك كان الجوابُ بها بعد النَّفي، أصرحَ من الجوابِ بحرفِ (نعم)؛ لأنَّ (نعم) تحتملُ تقريرَ النَّفي، وتقرير المنفيِّ، وهذا معنى ما نُقل عن ابنِ عبَّاس (رضي الله عنهما) في هذه الآية أنَّه قال: (لَوْ قَالوا: نعم، لكفروا)، أي: لكان جوابُهم مُحتمِلًا للكفر، ولمَّا كان المقامُ مقامَ إقرارٍ؛ كان الاحتمالُ فيه تفصِّيًا من الاعتراف[1].

موقعُ فصلِ جملةِ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ عمَّا قبلَها، وقوَّةُ الجوابِ فيها:

المـيـثـاقُ الَّـذي شهدتهُ الأرواحُ دونَ الأشباحِ، إقـــرارٌ سـابـقٌ بالولاءِ للَّهِ

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا، فقيل: قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[2]، فبينها وبين الجملةِ الَّتي قبلها شبهُ كمالِ اتِّصالٍ، وقد فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها جاءتْ على طريقةِ المحاورةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30][3]، بعد محاورةِ اللَّه تعالى لملائكتِه الكرام، وهذه الجملةُ جوابٌ عن الاستفهامِ التَّقريريِّ، أي: شهدنا على أنفسِنا عن عقيدةٍ وإقناعٍ، علمًا شهوديًّا، بأنَّك أنت ربُّنا وخالقنا، ولا ربَّ لنا سواك؛ فإنَّ آثارَ رحمتِكَ، وعجائبَ خَلْقك، ومظاهرَ قدرتك، تجعلُنا لا نتردَّدُ في هذه الشَّهادةِ[4]؛ وذلك لأنَّهم وصلوا بعد البيانِ إلى حدٍّ لا يكون فيه الجوابُ إلَّا ذلك، فكأنَّهم قالوه، فهو من وادي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ١٥﴾ [الرَّعد: 15] الآية، و﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾ [النَّحل: 49][5]. وليس بعجيبٍ أن يكون بيننا وبَيْنَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 431/5.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 153/8.

اللّهِ سبحانه هذا الموقفُ الَّذي شهدتْهُ أرواحُنا، ولم تشهدْهُ أجسادُنا، كما شَهِدَتْهُ المخلوقاتُ جميعًا؛ من حيٍّ وغير حيٍّ، وهذهِ الشَّهادةُ إقرارٌ سابقٌ بولائنا جميعًا للّهِ، وإيماننا بوحدانيَّتِه؛ وإنَّ من شأنِ هذا الإقرارِ أن يُقيم وجوهنا إلى اللّه، بعد أن نلبسَ هذه الأجسادَ الَّتي نعيش فيها، فهذا الإقرارُ رصيدٌ من الإيمان نستقبلُ به الحياةَ، ونتلاقى بهِ على طريقِ الإيمانِ مع دعوةِ العقلِ الَّذي أوجدَهُ اللّهُ فينا، ومع دعوةِ الرُّسلِ الَّذين أرسلَهُم اللّهُ إلينا[1].

بلاغةُ كمالِ الاتِّصالِ أو الاستئنافِ بين حكايةِ قولِ البشرِ أو الملائكةِ:

تأكيدُ الإقرارِ السَّابقِ مع بيانِ حُسنِ الوقفِ على (بلى) من عَدَمِهِ

قوله: ﴿شَهِدْنَآ﴾، يحتملُ أن يكونَ من قولِ بني آدمَ، حين أشهدَ اللّهُ بعضَهم على بعضٍ، فقالوا: بلى شهدْنا، فلا يحسنُ الوقفُ على قولهِ: بَلَىٰ، ويكون قولهم: ﴿شَهِدْنَآ﴾ تأكيدًا لمضمونِ ﴿بَلَىٰ﴾، والشَّهادةُ هُنا أيضًا بمعنى: الإقرار[2]، ويحتملُ أن يكونَ قولُهُ: شَهِدْنَا من قول الملائكةِ، فيحسنُ الوقفُ على قولهِ: بَلَىٰ[3]، واستئنافُ الكلام بعده، ويكون في الكلام حذفٌ تقديره (لمَّا قالت الذُّرِّيَّةُ: بلى؛ قال اللّهُ تعالى للملائكة: اشهدوا، قالوا: شهدنا)[4]، أي: عليكم بالإقرارِ بالرُّبوبيَّةِ[5].

بلاغةُ حذفِ حرفِ التَّعليلِ في: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾:

بيانُ تعليلِ فعلِ الأخذِ والإشهادِ السَّابقِ، وتعليلِ نفي اللَّاحقِ

وقع قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ في موقع التَّعليلِ، لفعل الأخذِ والإشهادِ؛ فهو على تقديرِ لامِ التَّعليل الجارَّة (لئلَّا)، وحذْفُها مع (أن) جارٍ على المُطَّردِ الشَّائعِ، والمقصودُ التَّعليلُ بنفي أن يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لا بإيقاعِ القولِ، فحَذْفُ حرف النَّفي جرْيٌ على شيوع حذفهِ مع القولِ، أو هو تعليلٌ بأنَّهم يقولونَ ذلك إن لم يقعْ إشهادُهم

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 514/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 169/9.
(3) عبد الرّحمن الثّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 92/3.
(4) محمّد ثناء الله المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 427/3.
(5) محمّد الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 662/3.

على أنفسِهم؛ كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الأنعام: 156][1].

دلالةُ تلوينِ الخطابِ في قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾:

تشديدُ تذكيرِ المخاطبينَ بالعهدِ السَّابقِ، والاحتجاجِ عليهم بهِ

معنى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾: لئلَّا تقولوا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، ويجوزُ أن يكون التَّقديرُ: شهدْنا كراهيةَ أن تقولوا، وقرأ أبو عمرٍو بالياء (يقولوا)؛ لأنَّ الَّذي تقدَّم من الياءِ على الغيبةِ، وكِلا الوجهين حسنٌ؛ لأنَّ الغُيَّبَ هم المخاطبون في المعنى[2]، وقرأ الجمهورُ: أن تقولوا بتاء الخطاب[3]، فيه تحويلٌ مِن خِطابِ الرَّسولِ في قَولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾، إلى خطابِ قَومِه ومعاصريه من اليهود، تشديدًا في الإلزام إليهم، وإلى متقدِّميهم بطريقِ التَّغليبِ، وتصريحًا بأنَّ المقصودَ مِن قِصَّةِ أَخْذِ العَهدِ تذكيرُ المُشركينَ بما أودَعَ اللهُ في الفِطرةِ مِن التَّوحيدِ، وهذا الأسلوبُ هو مِن تَحويلِ الخِطابِ عن مخاطَبٍ إلى غيرِه، وليس مِن الالتفاتِ؛ لاختلافِ المُخاطبينَ[4]، وهذه الآيةُ تذكيرٌ بما أخذ على جميع المكلَّفينَ من الميثاق، واحتجاجٌ عليهم لئلَّا يقولَ الكفَّارُ: إنَّا كنَّا عن هذا الميثاقِ غافلين، لم نحفظْهُ، ولم نذكرْهُ[5].

بلاغةُ القيدِ بالظَّرفِ في: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

بيانُ تجلِّي الأمرِ ووضوحِهِ يومَ القيامة، حيثُ الجزاءُ والحسابُ

يومُ القيَامَةِ ظرفُ جزاءِ الأعمال، وهو يومُ إدانةِ الخلائق ومحاسبتهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، وهو اليوم الَّذي يسألُ فيه عن الرُّبوبيَّة والتَّوحيدِ[6]، فإن قيل: إنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(2) الواحدي، الوسيط في التَّفسير: 424/2، والثَّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 92/3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(5) الواحديّ، الوسيط في التَّفسير: 424/2.
(6) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 216/5.

ذلك الميثاقَ لا يذكرهُ أحدٌ اليومَ، فكيفَ يكون حجَّةً عليهم اليوم، أو فكيف يذكرونَهُ يومَ القيامة، حتَّى يحتجَّ عليهم به؟ فجوابه: أنَّ اللّه تعالى لمَّا أخرجَ الذُّرِّيَّة من صلب آدمَ، ركَّبَ فيهم العقولَ، وأخذَ عليهم الميثاقَ، فلمَّا أُعيدوا إلى صلبِ آدمَ؛ بَطَلَ ما رُكِّبَ فيهم، فتوالدوا ناسين لذلك الميثاقِ، لاقتضاءِ الحكمةِ الإلهيَّةِ نسيانهم له، ثُمَّ ابتدأَهُم بالخطاب على ألسنة الرُّسلِ (عليهم الصَّلاة والسَّلام) وأصحابِ الشَّرائعِ، فقامَ ذلك مَقامَ الذِّكر؛ إذ الدَّارُ دارُ تكليفٍ وامتحانٍ، ولو لم ينسوهُ لانتفتِ المحنةُ والابتلاءُ والتَّكليف، فقامت الحُجَّةُ عليهم، لإمدادهم بالرُّسل، وإعلامِهم بجريان أخذِ الميثاق عليهم، وبذلك قامتِ الحُجَّةُ عليهم أيضًا يوم القيامة، لإخبارِ الرُّسل إيَّاهم بذلك الميثاقِ في الدُّنيا؛ فمن أنكرَهُ كان مُعانِدًا ناقضًا للعهد، ولَزمتهم الحجَّةُ، ولم تسقط عنهم بنسيانهم، وعدمِ حفظهم بعد إخبارِ الصَّادق[1]، فيحاسَبونَ يَوْمَ القيامة عند ظهورِ الأمر[2].

سِرُّ اصطفاءِ اسم (القيامة) في قولِهِ: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سُمِّي بهذا الاسم؛ لأنَّه يومُ قيامِ النَّاس من قبورِهم، وقيامِ الأشهادِ من الرُّسل والأنبياء، والصَّالحين والملائكةِ، ويومُ قيامِ العدل الحقيقيِّ بين النَّاسِ؛ فلا يستطيعُ منكرٌ إنكارَ ما عاهدَ عليهِ من الميثاقِ، لقيامِ العهدِ عليهِ بقيامِ الأشهادِ.

قيامُ العدلِ على من أنكرَ الميثاقَ بقيامِ الأشهادِ عليه

بلاغةُ التَّعبيرِ بمقولِ جملةٍ اسميَّةٍ مؤكَّدةٍ:

قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: وحدانيَّتك وربوبيَّتك، ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ إذ لم ينبِّهْنا إليه منبِّهٌ، أولعدم الأدلَّة، فلذلكَ أشركْنا[3]، فأكَّدوا جهلَهم بلفظِ (إنَّ) واسميَّة الجملةِ، ظنًّا منهم أنَّ ذلك

التَّنبيهُ على أنَّ تأكيدَ جهلِهم، لايعذَرونَ بهِ في ذلك اليومِ

(1) الخازن، تفسير الخازن: 266/2.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 153/8.

ينفعُهم، وأنَّهم معذورون بجهلِهم وغفلتِهم؛ ومآلُ هذا أنَّهُ لا يقبلُ منهم الاعتذارَ بالجهلِ؛ لأنَّهم نُبِّهوا بنصبِ الأدلَّةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (هذا) في: ﴿عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾:

بـيـانُ تـوجُّـهِ الإشـــارةِ إلى العهدِ والإقرارِ، أو إلـى أصـلِ المعرفةِ الفطريَّةِ

الإشارةُ في ﴿عَنْ هَٰذَا﴾ تتَّجهُ إلى أمرين: أحدهما: أنَّهُ إشارةٌ إلى الميثاقِ والإقرارِ، والثَّاني: أنَّه إشارةٌ إلى معرفةِ أنَّه الخالقُ[2]، أي: إلى مضمونِ الاستفهامِ وجوابِهِ، وهو الاعترافُ بالرُّبوبيَّةِ لله تعالى[3]، والتَّعبيرُ باسم الإشارةِ فيه تمييزٌ أكملُ تمييزٍ؛ إذ المعهودُ في الإشارة أن تكون لمحسوسٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالغفلةِ بدلَ النِّسيانِ:

دفـعُ الاعـتـذارِ يومَ الدِّينِ بذكرِ الـغـفـلـةِ الَّـتـي تَدُلُّ على نسيانٍ سابقٍ لها

الغفلةُ: عنِ الشَّيءِ، هي انصرافُ الذِّهنِ عن ملاحظتِهِ، ومُراقبتِهِ، مع وجودِهِ في مجال الإدراك، أو وجودِ أدلَّتِه، وإمكانِ إدراكه بها، لولا وجودُ الصَّارف، أو السَّهو الَّذي هو بمنزلة إطباقِ الجفنين على العينين، مع إمكانِ الرُّؤية؛ فهي تركٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّسيانُ غيبَةُ الشَّيْءِ عَن الْقلب بِحَيْثُ يحْتَاج إِلَى تَحْصِيل جَدِيد[4]، فهو تركٌ بغيرِ اختياره، ففي النَّاس فطرةٌ تدعوهم إلى الإيمانِ باللهِ، حيثُ يتهدَّون بهذهِ الفطرةِ إلى التَّعرُّفِ على اللهِ، وإفراده بالألوهيَّةِ، ولكنَّ هذه الفطرةَ تتعرَّضُ لآفاتٍ كثيرة، فيصيبُها الفسادُ والعطب، فتتعطَّلُ منها القوى المدركةُ لآلاءِ اللهِ، القادرةُ على الاتِّصالِ به، فيكونُ الضَّلالُ والتَّيهُ في عوالم الشِّركِ والكفر[5]، فذكرُ الغفلةِ كأنَّه اعتذارٌ بقرينة ما جاءَ بعد ذلك من الاعتذارِ بتقليدِ الآباء، فجاءَ القرآنُ بدفعِ العُذرَين مسبقًا.

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 103/9، ومحمّد الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 783/1.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 167/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) الكَفَوِيُّ، الكُلِّيات، ص: 506.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 514/5.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشَّهادة والإقرار:

الإقـــرارُ تَـكَـلُّـمٌ بـالـحـقِّ الـلَّازم عـلـى الـنَّـفـس، وهـو أخـصُّ من الشَّهادةِ

الشَّهادةُ إخبارٌ عن عِيانٍ بلفظ الشَّهادة[1]، وهي في الأصلِ إدراكُ الشَّيءِ من جهة سمعٍ أو رؤيةٍ[2]، وقد شاهدتُ الشَّيءَ رأيتُه، ولهذا سُمِّيَ ما يُدرَك بالحواسِّ، ويُعْلَمُ ضرورةً شاهدًا[3]، أمَّا الإقرارُ؛ فهو التَّكلُّم بالحقِّ اللَّازم على النَّفس، مع توطينِ النَّفس على الانقياد والإذعان[4]، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤﴾ [البقرة: 84]، والإخبارات ثلاثةٌ: إمَّا بحقٍّ للآخرِ على آخرَ؛ وهو الشَّهادة، وإمَّا بحقٍّ للمُخْبِرِ على آخر؛ وهو الدَّعْوى، أو بالعكس؛ فهو الإقرار[5]، كما أنَّ الإقرارَ يكون بالقلبِ أو اللِّسان أو بهما[6]، فالإقْرَار بِالتَّوحيد وَما يجْرِي مجْراه لا يُغْني بِاللِّسَانِ مَا لم يُضامَّهُ الإقرارُ بِالقَلبِ[7]، فاستخدم الإقرار هاهنا؛ لأنَّه الأبرُّ بالسِّياقِ.

النِّسيان والغفلة:

الـغـفـلـةُ تَـــرْكٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّـسيانُ تَـرْكٌ بغيرِ اختيارِهِ

الغفلةُ: عبارةٌ عن عدمِ التَّفطُّنِ للشَّيءِ، وعدمِ حضورِهِ في البالِ بالفعلِ، سواء بقيت صُورَتُه أو معناه في الخيال، أو الذِّكرِ، أو انمحت عن أَحَدِهِمَا؛ فهي تركٌ باختيار الغافلِ، والنِّسيان غَيبَة الشَّيْء عَن الْقلب، بِحَيْثُ يحْتَاج إِلَى تَحْصِيل جَدِيد[8]، فهو تركٌ بغير اختيارِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]، ولم يقل:

(1) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 129.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 291.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 305.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 64.
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 129.
(6) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 58.
(7) الكفويّ، الكليّات، ص: 160.
(8) الكفويّ، الكليّات، ص: 506.

ولا تكن من النَّاسينَ، فإنَّ النِّسيانَ لا يدخل تحتَ التَّكليفِ، فَلا يُنْهَى عَنْهُ[1]، فالغفلةُ أعمُّ من النِّسيانِ؛ لأنَّ النِّسيانَ يَحْتاج صاحبه إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديد، وَكُلْفَةٍ في تحصيله ثانيًا[2]، فكلُّ نِسْيَانٍ غَفْلَةٌ، وليس كُلُّ غَفْلَةٍ نِسْيَانًا.

(1) ابن قيّم الجوزيَّة، مدارج السَّالكين: 405/2.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 389.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»